

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد :

قال الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له في رسالته (نواقض الإسلام):

الثاني: مَنْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ وَسَائِطَ يَدْعُوهُمْ، وَيَسْأَلُهُمُ الشَّفَاعَةَ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِمْ كَفَرَ إِجْمَاعًا.

قال المصنّف رحمه الله تعالى: «الثاني» أي: من نواقض الإسلام «مَنْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ وَسَائِطَ يَدْعُوهُمْ، وَيَسْأَلُهُمُ الشَّفَاعَةَ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ كَفَرَ إِجْمَاعًا» ؛ هذا الناقض داخل في الناقض الذي قبله، إلا أن الناقض الذي قبله عامٌ يشمل كل أنواع الشرك وجميع أفرادِهِ، وهذا الناقض خاصٌ في اتِّخَاذِ الوسائط الذين من خلاصهم يتقرب العبد إلى الله عزّ وجلّ؛ زاعمًا أنّهم يقربونه إلى الله ويدنونه منه، قال الله عزّ وجلّ عن الكفار: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٥]، أي: أنّهم اتَّخَذُوهُمْ واسطة بينهم وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِيُقَرِّبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وليُدنُوهُمْ منه تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وعلّلوا هذا الاعتقاد الفاسد والدين الباطل والكفر المشين بأنّ ذنوبهم كثيرة وتقصيرهم عظيم، وهؤلاء الوسائط أهل جَاهٍ عند الله وأهل مكانة ومنزلة، ولأجل ذا اتَّخَذُوهُمْ وسائط يقربوهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن اتَّخَذَ بينه وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واسطة؛ يعبد الله جلّ وعلا عن طريق هذه الوسطة، أو يصرف العبادات لهذه الوسطة؛ زاعمًا أنّها تُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ عزّ وجلّ فهذا من الإِشْرَاقِ بالله جلّ وعلا؛ كما مرّ معنا في الآية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، أي أنّ مقصودهم أن يُقَرَّبُوا -أو أن يَدْنُوا- من الله عزّ وجلّ، وأن يفوزوا بثواب الله؛ فاتَّخَذُوا هذه الوسائط. وهذا من الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنّ العبادة بجميع أنواعها -ومنها الدعاء- إنما يُتَّجَهُ فيها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والمصنّف رحمه الله تعالى أفرد هذا الناقض بالذِّكْرِ مع دُخُولِهِ في الذي قبله؛ لكثرة وقوع هذا الناقض في الناس؛ فهو من أكثر أنواع الشِّرك ووقوعًا، وأكثر ما يكونُ أيضًا تلبيس أهل الضلال وأئمة الباطل في هذا الباب؛ حيث دخلوا على الناس وعلى العوامّ والجُحَّال ببعض الشُّبهات التي حرفوهم من خلاصها عن التَّوْحِيدِ إلى التَّنْذِيدِ، كقولهم

عن هذا الشُّركِ إِنَّه وسيلة إلى الله ، وقولهم: إِنَّ هذا هو المراد بقوله ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]؛ قالوا: هذه وسيلة إلى الله تعالى، قالوا: هو المراد بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

و«الوسيلة» بإجماع أئمة التفسير وعلماء المسلمين: القربة إلى الله؛ بفعل طاعته واجتناب ما نهى عنه سبحانه وتعالى. هذه هي الوسيلة. الوسيلة التي يبتغى بها ثواب الله وتكون بها النجاة من عذابه وعقابه هي أن يفعل العبد ما أمره الله سبحانه وتعالى به، أن يطيعه فيما أمر، وأن ينتهي عما نهى عنه وزجر. هذه هي الوسيلة، ﴿ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: القرب منه سبحانه؛ بفعل ما أمر، وترك ما نهى عنه وزجر؛ هذا الذي يُتَقَرَّبُ به إلى الله، وتُنال به ولاية الله؛ كما في حديث الولي المشهور ((قال الله سبحانه وتعالى: مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ))؛ هذه هي الوسيلة، الوسيلة: التقرب إلى الله بالفرائض، وإذا وُفِّقَ العبد للفرائض وزاد بفعل النوافل والرغائب والمستحبات كان هذا أعظم في باب الولاية. ولهذا؛ قال أهل العلم: إِنَّ الولاية على درجتين دَلَّ عليهما هذا الحديث:

﴿الدَّرَجَةُ الْأُولَىٰ مِنْ دَرَجَاتِ الْوَلَايَةِ - أَنْ الْعَبْدَ وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ - : الْحَافِظَةُ عَلَى الْفَرَائِضِ؛ فَالَّذِي يَحَافِظُ عَلَى الْفَرَائِضِ وَيَتَجَنَّبُ الْمَحْرَمَاتِ هَذَا وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ؛ الَّذِي يَحَافِظُ عَلَى الْفَرَائِضِ الَّتِي افْتَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَيَتَجَنَّبُ الْمَحْرَمَاتِ الَّتِي نَهَاها عَنْهُ هَذَا وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَهَذِهِ هِيَ الدَّرَجَةُ الْأُولَىٰ مِنْ دَرَجَاتِ الْوَلَايَةِ؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ مَعْرُوفَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِ«حَدِيثِ الْوَلِيِّ»، الْحَدِيثُ كُلُّهُ عَنِ الْوَلِيِّ، وَمَنْ هُوَ الْوَلِيُّ، وَمَا هِيَ مَكَانَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَبَدَأَ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذَا الْحَدِيثَ الْقُدْسِيَّ بِقَوْلِهِ: ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))، بَدَأَ بِهَذَا، وَهَذَا فِيهِ مَكَانَةُ الْأَوْلِيَاءِ عِنْدَ اللَّهِ أَوْ مَكَانَةُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ: ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)) كَأَنَّهُ قِيلَ: مَنْ الْوَلِيُّ؟ جَاءَ الْبَيَانُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ قَالَ: ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ))؛ وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ الْأُولَى الَّتِي تُنَالُ بِهَا الْوَلَايَةُ، وَيَكُونُ الشَّخْصُ بِهَا فِي عِدَادِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ: أَنْ يَحَافِظَ عَلَى الْفَرَائِضِ وَيَتَجَنَّبَ الْمَحْرَمَاتِ. وَهَذَا الَّذِي يَسْمِيهِ الْعُلَمَاءُ: الْمُقْتَصِدُ، يَعْنِي الَّذِي اقْتَصَرَ عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبِ وَتَرَكَ الْمَحْرَمَ.

﴿ثُمَّ الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: وَهِيَ دَرَجَةُ الْمُقَرَّبِينَ أَوْ دَرَجَةُ السَّابِقِينَ بِالْخَيْرَاتِ، قَالَ: ((وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي عَلَيْهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيدَنَّهُ)) .

هؤلاء أولياء الله، وانظر حال أولياء الله؛ قال في تمام الحديث: «وَلَيْنَ سَأَلْنِي»، قال: «وَلَيْنَ اسْتَعَاذَ بِي»؛ الأولياء لا يتخذون الوسطاء بينهم وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ بل يدعونه مباشرة، يستعيذون به مباشرة، يلتجئون إليه مباشرة، يخضعون له، يصرفون له دعاءهم، دُهِمَّ، خضوعهم، تَقَرُّبُهُمْ، مناجاتهم، كُلُّ ذَلِكَُمُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. هؤلاء أولياء الله، ومن سواهم أولياء الشَّيْطَانِ؛ الذين أطاعوا الشَّيْطَانِ فيما دعاهم إليه من عبادة غير الله، وَصَرَفَ التَّقَرُّبَ لغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومع طاعتهم للشَّيْطَانِ وعبادتهم لغير الله أُوهِمُّهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُمْ أولياء، وظن أيضاً فيهم بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُمْ أولياء، وهم أولياء للشَّيْطَانِ، ليسوا أولياء لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أولياء الله عَزَّ وَجَلَّ هم الَّذِينَ يحافظون على الفرائض ويتجنبون المحرمات؛ هذه الدرجة الأولى. وأعلى منها درجة: مَنْ يزيد على ذلك بفعل الرغائب والتوافل والمستحبات.

وهذا المعنى المذكور في حديث الولي مُقَرَّرٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي صِفَةِ الْأَوْلِيَاءِ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَنْ هُمْ؟ مَا صِفَتُهُمْ؟ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والتقوى؛ فمن كان مؤمناً تقيّاً كان لله وليّاً، فالذي أكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالجمع بين الإيمان والتقوى فهو من أولياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. والإيمان والتقوى من الألفاظ التي يقال عنها: «إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت»؛ فاجتماع الإيمان والتقوى هنا يفيد أَنَّ الإيمان يتعلق بباب الاعتقاد وفعل الأوامر، والتقوى تتعلق بجانب ترك المحرمات والبُعْدِ عن النواهي.

فمعنى قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، أي: الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِكُلِّ مَا أَمَرَهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَأَطَاعُوهُ جَلَّ وَعَلَا فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَكَانُوا يَتَّقُونَ أَي: يَتَّقُونَ سَخَطَ اللَّهِ؛ بِتَجَنُّبِ الْمَحْرَمَاتِ وَالْبُعْدِ عَنِ الْآثَامِ؛ هَؤُلَاءِ هُمُ الْأَوْلِيَاءُ لِلَّهِ. أَمَّا الَّذِينَ يَدْعُونَ الْوَلَايَةَ وَهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، وَلَا يُعْرِفُونَ بِشُهُودِهَا وَالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا، وَيُعْرِفُ عَنْهُمْ غَشْيَانُ الْمَحْرَمَاتِ وَازْتِكَابُ الْآثَامِ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَإِنَّمَا هُمُ الْأَوْلِيَاءُ لِلشَّيْطَانِ، حَتَّى وَإِنْ ادَّعَوْا -أَوْ ادَّعَى فِيهِمْ- الْوَلَايَةَ؛ قَالَ اللَّهُ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ.

والمصيبة العظيمة والبلية الكبرى في هذا الباب؛ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَوَامِ اخْتُرِفَتْ عَقَائِدُهُمْ وَأَدْيَاؤُهُمْ، وَأُضِلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، مِنْ خِلَالِ هَذَا الْبَابِ -بَابِ الْوَلَايَةِ- وَادَّعَاءِ الْوَلَايَةِ فِي بَعْضِ الْأَشْخَاصِ إِلَى دَرَجَةِ أَنْ اتَّخَذَ هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءِ الْمَرْعُومُونَ وَسَائِطًا، وَلَا يَكُونُ تَقَرُّبُ أَتْبَاعِهِمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَّا مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْوَسِطَةِ.

ومن يسمع القصص في هذا الباب يسمع عجباً؛ أخذ هؤلاء الطُّرُقِيَّة التَّائِبِينَ من هذا الضَّلَال الباطل يُحَدِّثُنِي شخصياً أنه كان يتلمذ على أحد شيوخ هؤلاء الطُّرُقِيَّة المضلِّين، وكان غَرَسَ فيه أن يكون ذِكْرُه لِلَّهِ جلَّ وعلا بواسطة شيخ الطَّريقة، وأعطاه ذِكْرًا مُعَيَّنًا مَلِيئًا بالبدع والخرافات، وقال: تَذَكَّرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بهذا الذِّكْر من طريقي. وأيضاً حَدَّدَ له الطَّريقة: إذا أراد أن يذكر يأتي بِحَضْرَةِ الشيخ ويكونُ الشيخُ أمامه، ويرى الشيخَ وَيَنْظُرُ إليه ويبدأُ يَذْكُرُ اللَّهَ -بِرَّعْمِهِ- من خلاله! يقول لي: اضْطَرَرْتُ مَرَّةً إلى السفر إلى بلد بعيد؛ فَأَتَيْتُ له قَلْتُ له: الآن كيف أذكر الله وأنا سأسافر، وسأكون بعيداً عنك؟! قال: عند السفر تأتي وأعطيك الحُلَّ . يقول: لما أردتُ السفر أتيت إليه، فإذا به مَهَيَّي صورةً لَهُ، قال: خُذْ هذه معك؛ ما دام أنه لا تستطيع مباشرة ولو بخلال الصورة يُفِيدُكَ، خُذْ هذه الصورة معك. يقول: فأخذتها معي، وكنتُ اشتريت الإتريك هذا المضيء، وأختفي عن زملائي داخل البطانية داخل اللحاف، وأضع الكَشَافَ على صورة الشيخ وأبدأ أذكر الله من خلاله، وأعتقد أن ذكر الله لا يَصِلُ إليه إلا بواسطة الشيخ!!

مِثْلُ هؤلاء المضلِّين عَنْ دِينِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَثُرَ، وكثيراً ما يدخل هؤلاء الشيوخ -شيوخ الضَّلَال- على العوام من خلال هذا الباب، وغالبُ صَنِيعِ هؤلاء يَرْجِعُ إلى طَلَبِ الرِّعَامَةِ والرِّئَاسَةِ والمال، وأكَلِ أموال الجُهَّالِ والعوام بالباطل؛ باسم الولاية، وباسم المكانة عند الله، والجاه عند الله. فيصبح العوام يعتقدون بهم، وكُلُّما عَرَضَتْ لهم حاجةٌ فَرَعَوْا إلى الشيخ لا إلى الله، وكلما أَلَمَّتْ بهم مصيبة فرعوا إلى الشيخ والتجأوا إليه لا إلى الله. ولا يبالي بعض هؤلاء بأن يقول للشيخ مباشرة: أَعِثْنِي.. أَدْرِكْنِي.. الْحَقْنِي.. أَنْقِذْنِي.. أنا عَائِدٌ بك.. أنا مُلْتَجِئٌ إليك.. يقولونها له حَيًّا ومَيِّتًا، ولا يلجؤون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي بيده أَرْمَةُ الأمور ومَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ والأرض.

فهذا الباب حصل فيه فساد عريض وإضلال للناس كثير؛ ولهذا أفرده رحمه الله تعالى بالبيان. قال: «النَّاقِضُ الثَّانِي: مَنْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ وَسَائِطَ يَدْعُوهُمْ» ؛ حَدَّدَ نَوْعَ الوساطة هنا؛ قال: «جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ وَسَائِطَ يَدْعُوهُمْ»؛ لَأَنَّ اتِّخَاذَ الوسائط بين العبد وبين الله جلَّ وعلا على نوعين:

النوع الأول: هذا الذي يتحدَّث عنه الشيخ رحمه الله، وهو مِنَ الشِّرْكِ بالله النَّاقِلِ مِنَ مِلَّةِ الإسلام.

والنوع الثاني: اتِّخَاذَ الوسائط في إبلاغ دين الله، وهم الأنبياء؛ فالأنبياء واسطة بيننا وبين اله؛ يبلغوننا دين الله، لا نعرف دين الله إلا بواسطة الأنبياء، هم الذين بلغونا دين الله؛ فهم واسطة في إبلاغ دين الله. ولهذا؛ انظر في الآيات التي في سورة البقرة المبدوءة بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾؛ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهِلَةِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠]، آيات كثيرة مبدوءة بـ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، يقول الله في كُلِّ ذلك: ﴿قُلْ﴾ كذا.. ؛ هذا واسطة في إبلاغ دين الله، لا نعرف هذه الأحكام، ولا نعرف هذه الشرائع، ولا

نعرف هذه العبادات، ولا نعرف هذه الأوامر، ولا نعرف هذه النواهي، إلا بواسطة الأنبياء؛ الأنبياء واسطة بيننا وبين الله في إبلاغ الدين؛ لا يمكن أن نعرف شيئاً من دين الله إلا بواسطة الأنبياء.

فالأنبياء واسطة بيننا وبين الله في إبلاغ دينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أمّا عبادة الله، ودعاء الله، فالله يدعى مباشرة، ولا يُتَّخَذُ في الدعاء والعبادة واسطة بين العبد وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولهذا لما جاء السؤال عن هذا النوع اختلفت الصيغة في القرآن؛ قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، حتى ﴿قُلْ﴾ لم تأتِ هنا، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، لم يقل: قل إني قريب؛ ارتفعت ﴿قُلْ﴾؛ لأنه ما فيه واسطة، الدعاء ما فيه واسطة؛ مباشرة تدعو الله، أين ما كنت تدعو الله، في أي مكان تكون تدعو الله. بينما المضللين إذا أراد أن يدعو الله يقول: لا؛ أذهب عند القبر أتوسّط به، وإذا لم أدع الله عند القبر ما ينفع دعائي؛ لأنه ما فيه واسطة - يقول-!!

أو مثل الذي حدّثكم عنه: الصورة، يخرج الصورة، وإلا يقول: ما ينفع الدعاء بدون الواسطة!! هذا نوع من التّضليل العظيم للعوام والجهال، وحرف لهم عن دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى باسم «الواسطة»، أو «الوسيلة»، أو يسمونها أيضاً «شفاعة»، يقولون: هؤلاء شفعاء لنا عند الله؛ نحن ندعوهم ليشفعوا لنا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وهذا عيّن صنيع المشركين الأول؛ كما بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فهذه العبادة لغير الله التي يمارسونها إن سئلوا عنها قالوا: هؤلاء شفعاء لنا عند الله، يعني: لا نقصد بدعائهم إلا أن يشفعوا لنا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولهذا نبه المصنف هنا، قال: «يَدْعُوهُمْ، وَيَسْأَلُهُمُ الشَّفَاعَةَ»؛ مثل ما قال المشركون الأول: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: نطلب منهم أن يشفعوا لنا عند الله تبارك وتعالى.

«وَيَسْأَلُهُمُ الشَّفَاعَةَ»؛ والشفاعة جميعاً مُلْكُ اللَّهِ، أليس قد قال الله في القرآن: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤]، الشفاعة جميعاً ملك لله، ليست مُلْكُ أَحَدٍ وإِنَّمَا هي ملك لله، ولا أحد يستطيع أن يشفع عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأحدٍ كائناً مَنْ كان إلا بإذن الله؛ فالشفاعة ملك لله؛ فمن أراد أن يكون مِمَّنْ يُشْفَعُ له يوم القيامة يَطْلُبُ ذلك من الله مباشرة؛ لأنّ الشفاعة بيده، ليست بيد الأنبياء أو الأولياء أو الملائكة أو غيرهم، ليست بيدهم ولا يملكونها، الشفاعة ملك لله، الشفاعة لله جميعاً، وليست بيد أحد كائناً مَنْ كان، ولا يمكن لأحد أن يشفع عند الله إلا بإذن الله. ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، وقال جلّ وعلا في آية الكرسي أعظم آية من كتابه سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال -جل وعلا-:

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]. ولهذا الشفاعة لا تكون نافعة إطلاقاً إلا إذا أذن الله للشافع، ورضي عن المشفوع له إلا إذا أذن جلّ وعلا للشافع، ورضي عن المشفوع له. ومن كان كافراً مُشركاً يدعو غير الله لا تنفعه شفاعاة الشافعين؛ ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المائدة: ٤٨] ، حتى لو قُدِّرَ أنه شفع له عند الله لا تنفع، وقصة إبراهيم الخليل وهي في صحيح البخاري مع أبيه يوم القيامة قصة مشهورة، قال عليه الصلاة والسلام: ((يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلَ أَبَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ: الْآنَ لَا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ - خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، أَفْضَلُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ بَعْدَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلاً - يَا رَبُّ أَلَمْ تَعَذِّبْنِي إِلَّا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، وَأَيُّ خِزْيٍ أَحْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَد؟! قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ))، هذا هو الجواب: «إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ»، ((ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: انْظُرْ؛ فَيَنْظُرُ فَإِذَا بِذِيخٍ)) يعني: يتحول والده إلى هذه الهيئة هيئة الذّيح وهو الذكر من الضباع، و((يُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ، وَيُطْرَحُ فِي النَّارِ)).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة، يقول أبو هريرة: إِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَكَرَ يَوْمَ الْعُلُولِ وَعَظَّمْ أَمْرَهُ، وَخَطَبَ النَّاسَ مُحَذِّراً مِنْهُ، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي خُطْبَتِهِ وَتَحْذِيرِهِ مِنَ الْعُلُولِ: ((لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا رُغَاءٌ - أَوْ شَاةٌ لَهَا تُغَارٌ -؛ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِي! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً؛ قَدْ أَبْلَعْتُكَ. لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمَحَمَةٌ؛ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِي! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً؛ قَدْ أَبْلَعْتُكَ. لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ - أَيُّ: مَظَالِمَ وَحُقُوقَ لِلنَّاسِ - فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِي! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً؛ قَدْ أَبْلَعْتُكَ. لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ؛ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِي! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً؛ قَدْ أَبْلَعْتُكَ)) ؛ وَقَوْلُهُ «صَامِتٌ» أَيُّ: ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ، وَالْعَرَبُ يُقَسِّمُونَ الْأَمْوَالَ إِلَى قِسْمَيْنِ: نَاطِقَةً، وَصَامِتَةً؛ النَّاطِقَةُ الَّتِي لَهَا حَمَحَمَةٌ، لَهَا رُغَاءٌ، لَهَا ثِغَاءٌ، بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ هَذِهِ يَسْمُونَهَا أَمْوَالَ نَاطِقَةً. وَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَنَحْوُهَا يَسْمُونَهَا أَمْوَالَ صَامِتَةً. وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ؛ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِي! فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً؛ قَدْ أَبْلَعْتُكَ»؛ قَالَ: «لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً؛ قَدْ أَبْلَعْتُكَ» انظر الواسطة، الواسطة البلاغ، وَبَلَغَ الْبَلَاغُ الْمِيزَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فَمَنْ قَامَ بِمَا بَلَغَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهُ وَعَمِلَ بِدِينِ اللَّهِ فَارَ وَنَجَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ. أَمَّا مَنْ خَالَفَ هَذِي النَّبِيَّ، وَارْتَكَبَ أَفْعَالَ الْمُشْرِكِينَ وَقَالَ: هَذِهِ شَفَاعَةٌ وَهَذِهِ وَسِيلَةٌ وَهَذِهِ وَاسِطَةٌ؛ هَذَا لَا يَحْطَى بِالْفُوزِ بِثَوَابِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بَلْ لَا يَنَالُ إِلَّا عِقَابَهُ.

ولهذا أيضاً قال أبو هريرة رضي الله عنه: «يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟» قال: ((من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه))، ولما قال له رجل: «يا رسول الله أسألك مُرافقتك في الجنة» قال: ((أعني على نفسك بكثرة السجود)) دله إلى الطريق، الطريق: كثرة السجود، العبادة، الإقبال على الله سبحانه وتعالى.

ولما نزل على نبينا عليه الصلاة والسلام قول الله جلّ وعلا: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا قُرَيْشًا، دعا أعمامه، دعا عمته صفية، دعا بنته فاطمة، كلهم يقول لهم: ((لا أمليكم لكم شيئاً))، قال: ((يا فاطمة بنت محمد سألني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً))، والله سبحانه وتعالى أيضاً أنزل عليه في القرآن: ﴿يَسْأَلُكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] الأمر لله. ولهذا إذا لم يفهم هذا الباب على وجهه الصحيح يضل الإنسان ضالاً مبيناً، ويدخل عليه دُعاة الضلال وأئمة الباطل فيخرفونه باسم الشفاعة أو باسم الوسيلة أو باسم الوساطة ونحو هذه الأسماء.

قال: «مَنْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ وَسَائِطَ يَدْعُوهُمْ، وَيَسْأَلُهُمُ الشَّفَاعَةَ»، أي: يسألهم أن يشفعوا له عند الله، يذهب إلى القبور - قبور الأنبياء، أو الأولياء، أو الصالحين، أو نحو ذلك - ويكي عند القبر ويُنَاجي صاحب القبر يدعوه؛ أنا المذنب.. أنا كثير الآثام.. أنا المخيطي.. وأنت مُقَرَّبٌ عند الله؛ اشفع لي عند الله! كُن واسطة بيني وبين الله في نجاتي من عذابه!! حُذ بيدي!!! إن لم تأخذ بيدي من الذي يأخذ بيدي؟! وهكذا في مناجاة متنوعة، وإذا سئل قال: أن أستشفع به، وأطلب منه أن يكون لي شافعاً عند الله. إذا كنت تريد الشفاعة؛ رب العالمين قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾، والشفاعة مُلك لله، تُطلب من المالك أو من غير المالك؟! قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾؛ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْظِيَ بِالشَّفَاعَةِ يَطْلُبُهَا مِنَ الْمَالِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقول: اللَّهُمَّ شَفِّعْ فِيَّ أَنْبِيَائَكَ، اللهم اجعلي ممن يشفع فيهم أنبياءك وأوليائك وملائكتك؛ يدعوا بهذا الدعاء، يسأل الله، ويُبلِّغ على الله سبحانه وتعالى، لا يتوجه بالدعاء والمناجاة والخضوع والدُّلِّ والخُشُوع والبكاء إلى غير الله؛ بل يتوجه بذلِّه وخُضُوعِهِ وانكساره لله رب العالمين جلّ وعلا.

قال: «يَدْعُوهُمْ، وَيَسْأَلُهُمُ الشَّفَاعَةَ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِمْ»؛ والتَّوَكَّلُ عَمَلٌ قَلْبِيٌّ، ومعنى «يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِمْ»: أي يعتمد في قلبه عليهم، لا على الله، يعتمد في قلبه على هؤلاء الذين اتخذهم وسائط بينه وبين الله، يتوكل عليهم في نجاته من النار، يتوكل عليهم في دخول الجنة، يتوكل عليهم في حصول السعادة في الدنيا والآخرة، يتوكل عليهم في تفريج همومه وتنفيس كُرْبَاتِهِ، يتوكل عليهم في قضاء حوائجه وحلِّ مشاكله.

والتوكل عبادة قلبية من أعظم العبادات وأجلِّها، وهي عبادة تُصَاحِبُ المسلم في كُلِّ أموره الدنيوية والدنيوية. ونبيُّنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمام المتوكلين على الله رب العالمين؛ فهو عليه الصلاة والسلام المتوكل على الله المعتمد على الله المفتقر إلى الله في كل حاجاته وجميع شؤونه، فهو مفتقر إلى الله سبحانه وتعالى مُلتجئ إلى الله في كل

حاجته. والتوكل لا يكون إلا على الحي الذي لا يموت؛ كما قال الله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] أي: وحده، التوكل لا يكون إلا على الحي الذي لا يموت، ومن سوى الله إمّا: حيّ سيموت، أو حيّ قد مات، أو جماد لا حياة له، وكل هذه الأصناف لا تستحق أن يتوكل عليها، وإمّا الذي يستحق أن يتوكل عليه ويُلْتَجَأَ إليه وتُفَوَّضَ الأمور كُلُّها إليه: الحي الذي لا يموت؛ كما قال في أعظم آية من كتابه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فالتوكل والاتجاء والاعتماد إنما يكون على الحي الذي لا يموت سبحانه وتعالى. وكان إمام المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه إذا خرج من بيته قال: «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، ويُنَازِلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ العبد إذا قال ذلك قيل له: «هُدَيْتَ، وَكُفِّيتَ، وَوُقِّيتَ»؛ هذه ثلاثة أمور تحصل للعبد إذا خرج من بيته وقال: «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، يقال له: «هُدَيْتَ، وَكُفِّيتَ، وَوُقِّيتَ»؛ «هُدَيْتَ» أي: طَرِيقُكَ الَّذِي أَنْتَ سَائِرٌ إِلَيْهِ، إن كان عبادة، إن كان حاجة دنيوية، مصلحة من المصالح، تُهْدَى إلى أرشد أمرك. «وَكُفِّيتَ» أي: كفاك الله سبحانه وتعالى ما أَهَمَّكَ؛ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، والأمر الثالث قال: «وَوُقِّيتَ»، أي: وقاك الله وسلمك من عُذْوَانٍ مُعْتَدٍ، أو ظُلْمٍ ظَالِمٍ، أو بَغْيٍ بَاغٍ. «هُدَيْتَ، وَكُفِّيتَ، وَوُقِّيتَ»، وقال الشيطان للشيطان آخر: «كَيْفَ لَكُمْ بِرَجُلٍ هُدِيَ وَوُقِيَ وَكُفِيَ؟!»؛ وهذا الحديث يدل دلالة واضحة أَنَّ الشيطان يبقى مُنْتَظِرًا خارج البيت ينتظر خروج الإنسان من بيته، وهذا معنى قوله في الحديث الآخر: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَاعِدٌ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرَقِهِ». ولهذا يحتاج الإنسان إلى التوكل على الله في كل مرة يخرج من البيت، مجرد ما يخرج من الباب يقول: «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

و«التوكل» عبادة قلبية، وهي: اعتماد القلب على الله، وتفويضه الأمور إليه؛ ﴿وَأَفْوضُ أُمُورِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤]، يُفَوَّضُ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ سبحانه وتعالى في جَلْبِ النَّفْعِ وَدَفْعِ الضَّرِّ؛ يبدل العبد الأسباب في جَلْبِ ما يَنْفَعُهُ وَدَفْعِ ما يَضُرُّهُ، ولا يعتمد على السبب؛ وإنما يعتمد ويتوكل على الله سبحانه وتعالى.

والتوكل شَرْطٌ فِي الْإِيمَانِ؛ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكُونُ بِذَلِكَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ؛ لِأَنَّهُ صَرَفَ الْعِبَادَةَ لَغَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولما وقع أقوام في تعظيم القبور والمشاهد والموتى تعظيمًا لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى؛ أصبحوا حتى العبادات القلبية يصرفونها للأَمْوَاتِ!! يخافون الأَمْوَاتَ خَوْفَ السَّرِّ، ويحبون الأَمْوَاتَ حُبَّ الدُّلِّ والخُضُوعِ، ويتوكلون على الأَمْوَاتِ، تكون قلوبُهم معتمدةً عليهم، والله يقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، وهم يتوكلون على

الأموات، يتوكلون في قضاء حوائجهم، دَفَعَ الضَّرَّ عنهم، كَشَفَ البلاء على الأموات في قبورهم ؛ وهذا كُلُّهُ مِنَ الشَّركِ بالله جل وعلا، واتَّخَذَ الوسائطَ بين العبد وبين رَبِّهِ سبحانه، وهذا كُلُّهُ مِنَ الشَّركِ النَّاقِلِ مِنَ مِلَّةِ الإسلام. والتَّوَكَّلُ - كما أَسْلَفْتُ - عبادةٌ تصاحِبُ المسلم في كلِّ شؤونه الدِّينية والدُّنيوية؛ فأنت بحاجة إلى التَّوَكَّلِ في كلِّ لحظة، في كلِّ نَفْسٍ، في كلِّ دقيقة، في كلِّ حركة، تحتاج إلى التَّوَكَّلِ على الله، تحتاج في كلِّ لحظة أن لا يَكِلَكَ إلى نَفْسِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

وأقول هُنا: سبحان الله! مَنْ يَصْرِفُ عبادةَ التَّوَكَّلِ إلى ميت من الأموات مدفونٍ في قبره، مهما كانت منزلته وعَلَتْ مكانته، نقولُ له اسمع : إمامُ المرسلين وسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ أَجمعين يقولُ في مناجاته لِربِّ العالمين: «لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»، هكذا يقول في مناجاته، ووصف هذا بأنَّه «دَعْوَةُ الْمَكْرُوبِ»؛ قال: ((دَعْوَةُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو؛ فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)) أي: لا مَعْبُودَ بِحَقِّ سِوَاكَ؛ فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ وَيُوجِّهُ وَيُعَلِّمُ الْأُمَّةَ أن يقولوا في مناجاتهم لِربِّ العالمين: «لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ». فكيف يُتَوَكَّلُ على عَبْدٍ فَقِيرٍ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس له غِنَاءٌ عن الله؛ بل هو مفتقر إلى الله سبحانه في كلِّ حاجاته ، وفي كلِّ لحظة ، وفي كلِّ نفس .

فالعبد بحاجة إلى التَّوَكَّلِ على الله في كلِّ لحظة وفي كلِّ أمر؛ إذا أردتَ فِعْلَ طاعةٍ أَنْتَ بحاجة إلى التَّوَكَّلِ، إذا أردتَ قضاء حاجة من حاجاتك الدُّنيوية أَنْتَ بحاجة إلى التَّوَكَّلِ على الله، إذا أردتَ النِّجاةَ مِنْ عَذَابٍ وَالسَّلَامَةَ مِنْ أَمْرٍ يَخِيفُكَ أَنْتَ بحاجة إلى التَّوَكَّلِ على الله؛ ولهذا جاء في الحديث: «كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا خَافَ قَوْمًا قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ شُرُورِهِمْ» تَوَكَّلْ على الله والتَّجاء إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أَنْتَ بحاجة إذا أردتَ أن تتجنب المعاصي والآثام أَنْتَ بحاجة إلى أن تتوكل على الله؛ فالتوكل على الله عبادة تصاحب المسلم في كُلِّ أحواله، في كلِّ أحواله يكون متوَكِّلًا. حتى في نومك تحتاج أن تتوكل على الله ليحفظك في نومك؛ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ»، هذا تَوَكَّلَ يقال عند النوم.

فالإنسان بحاجة إلى التَّوَكَّلِ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كلِّ أحواله وجميع شؤونه. فَمَنْ صَرَفَ هذه العبادة العظيمة الجليلة المباركة عظيمة النفع مَنْ صرفها لغير الله سواء لملكٍ أو لَوَلِيٍّ أو لِنَبِيٍّ أو غير ذلك وقع في الشَّركِ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّه صرفَ مَحْضَ حَقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على العباد لغيره يَمُنُّ لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا ولا ضَرًّا، ولا عطاءً ولا منعًا، ولا حياة ولا موتًا ولا نشورًا.

فهذا هو الناقِضُ الثاني من نواقض الإسلام. قال: «مَنْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ وَسَائِطَ؛ يَدْعُوهُمْ، وَيَسْأَلُهُمُ الشَّفَاعَةَ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِمْ؛ فَقَدْ كَفَرَ إِجْمَاعًا»، أي: بإجماع المسلمين، أهل البصيرة بكتابه وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وأختم الحديث حول هذا الناقض بالتنبية على قاعدة شريفة وعظيمة نبّه عليها المصنّف رحمه الله تعالى في كتابه «كشف الشبهات»، مستمدّة من قول الله تبارك وتعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَكِّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] فهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران تفيد المسلم ولو كان عامياً قاعدة شريفة في هذا الباب: في السلامة من شبهات أهل الباطل وتلبيسات أئمة الضلال.

والقاعدة هي: أن يُستَمْسَكَ بالمحكم، ومن أوضح المحكمات وأجلى الواضحات البينات في كتاب الله: أن الدعاء عبادة لا تُصرف لغير الله، التوكل عبادة لا يصرف إلا لله، الخضوع والذل عبادة لا يصرف إلا لله سبحانه وتعالى.

والدلائل بالعشرات أو المئات على ذلك في الكتاب والسنة، وخاصة عبادة الدعاء كثرت الأدلة عليها في القرآن الكريم، من أكثر العبادات ذكراً لأدلتها في القرآن عبادة الدعاء؛ ومع ذلك كما قال بعض أهل العلم أكثر الشرك في العالمين يكون في الدعاء، أكثر ما يكون الشرك في العالمين في الدعاء؛ يدعون غير الله سبحانه وتعالى. مع أن الدعاء من أكثر العبادات ذكراً لأدلة وجوب إخلاصه لله، والنهي عن صرفه لغيره! ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥٠]، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الإسراء: ٥٦]، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [سبا: ٢٢]. آيات كثيرة جداً في القرآن في وجوب إخلاص الدعاء، والتحذير من اتخاذ الشركاء مع الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك فالدعاء من أكثر ما يكون فيه الشرك في العالمين!

فإذاً القاعدة في هذا الباب: أن يُستَمْسَكَ الإنسان بالمحكم، ومن أوضح المحكمات وأبين البينات: أن الدعاء عبادة لا تُصرف إلا لله، التوكل عبادة لا يُصرف إلا لله. فإذا جاء أحد الملبسين ودعاة الضلال ليصرف العامي عن هذا المحكم، وأورد عليه حديثاً لا يفهمه، أو آية لم يعرف معناها، أو أورد عليه شبهة؛ فما الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها؟ وهو لا يعرف مثل هذه الأمور، ولا يستطيع أن يخوض معه لا في التمييز بين حديث ضعيف وصحيح، ولا في مناقشة في فهم حجة أو دليل، لا يعرف ذلك؛ فما الذي يصنعه في هذا الباب؟!

يرجع إلى المحكم يقول له : الدعاء عبادة، وهذا أمرٌ مُحْكَمٌ بَيِّنٌ في القرآن الكريم، أدلته كثيرةٌ جدًّا، وهذا الذي تذكُرُ لي الآن من المتشابه، ولن أنْتَقِلَ عَنْ هَذَا الْمَحْكَمِ لشيءٍ من المتشابه الذي ، وإن لم يكن عندي جواب على هذا المتشابه الذي تذكُرُهُ سَتَجِدُ جوابَهُ عند أهل العلم، أما أنا: لن أترشح عن هذا المحكم؛ فلن أدعو غير الله، ولن أتوكَّلَ إِلَّا على الله، ولن ألتجئ إِلَّا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا أَطْلُبُ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مِنْ الله؛ لَأَنهَا مُلْكُ اللهِ؛ ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

بمثل هذا يَسَلِّمُ الْمُسْلِمُ -بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مِنْ شُبْهِ أَهْلِ الضَّلَالِ، وإن لم يعرف تفاصيل الأجوبة عليها، وتفاصيل الأجوبة على شبه أهل الضلال موجودةٌ عند أهل العلم الراسخين، وهذا حَدُّ الْعَامِّيِّ. ولهذا لا ينبغي للْعَامِّيِّ أَنْ يَخُوضَ مَعَ أَيْمَةِ الضَّلَالِ فِي تَفْنِيدِ الشُّبُهَاتِ، هذه ليست للْعَامِّيِّ؛ هذه لأهل العلم؛ الْعَامِّيُّ يَكْفِيهِ الْاسْتِمْسَاكُ بِالْمَحْكَمِ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ شُبُهَاتِ أَهْلِ الضَّلَالِ؛ لئلا تَقَعَ فِي قَلْبِهِ فَيَزِيغَ.

وَأَسْأَلُ الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَحْفَظَ عَلَيْنَا جَمِيعًا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِنَا، وَأَنْ يُصْلِحَ لَنَا دُنْيَانَا الَّتِي فِيهَا مَعَاشُنَا، وَأَنْ يُصْلِحَ لَنَا آخِرَتَنَا الَّتِي فِيهَا مَعَادُنَا، وَأَنْ يَجْعَلَ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لَنَا فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَالْمَوْتَ رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِمَنْ شَاءَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ؛ إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى غَفُورٌ رَحِيمٌ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.